

بين العرقية والقومية الاجتماعية - د. علياء

جريج

فتح قرار المجلس العدلي اللبناني الأخير حرباً على الحزب السوري القومي الاجتماعي وفكره من كافة الأفرقاء اللبنانيين. وإحدى النقاط التي تم تداولها بخطأ كبير هي القومية الاجتماعية. ويأتي هذا المقال لتوضيح مفهوم القومية الاجتماعية عند سعاد المفسر، وتمايزها عن العرقية .

في غالبية التعليقات والمنشورات تم الخلط بين مفهومي العرقية والقومية. ونظر بعضهم بالتالي إلى القومية - قومية سعاد الاجتماعية - على أنها مفهوم عنصري تميّز بين البشر على أساس عرقي، أو تبني المجتمع على أساس عرقي صاف كالآرية مثلاً. وبعضهم الآخر نظر إلى القومية على أنها حالة طارئة حديثة الظهور في العالم، وهي قد فشلت في مجتمعنا بينما ظهرت المفاهيم الدينية الأكثر شمولية وانفتاحاً، حسب رأي هذا البعض.

يعرّف سعاد القومية الاجتماعية على أنها ثقة القوم بأنفسهم، وثقتهم بقدرتهم على العطاء والنجاح والإبداع. ويقدر ما تكون هذه الثقة عند القوم أو الشعب قوية بقدر ما يكون التعاضد. أما القوم عند المفسر سعاد فهو مجموع الناس الذين يسكنون الأرض الواحدة معاً ويتفاعلون في ما بينهم، ليجمعوا على ثقافة وأخلاق وإرادة واحدة في بناء متحدثهم الاجتماعي المتماسك الواحد المبدع الحاملهم كلهم إلى مراتب الأمم الحية. وهذا القوم، وفقاً لسعاد، يمكن أن يتشكل من أعراق وأصول مختلفة كما هي حال بلادنا ومنطقتنا التي تلاقت وتلاحمت فيها الأعراق القديمة الأولى، وبعد التاريخ الميلادي كانت ساحة لتلاحم السكان القدماء مع أعراق الروم والفرس والعرب والسلاجقة والأكراد والأتراك والأرمن وغيرهم... ممن توافدوا إلى منطقتنا سعياً وراء الاستقرار أو غيره.

هذه الأعراق تتفاعل لتنتج ثقافة عامة مع مرور الزمن. وكلمة تفاعل عند سعاد هي نقيض لمبدأ التعايش الذي أسقطته إسرائيل علينا وأصبح متداولاً. فسعاد أصّر، مثلاً، على كون الأكراد من النسيج الاجتماعي الأصيل للمنطقة، أعطوها وأعطتهم، أخذوا منها وبادلتهم، وأمنت لهم حياة هانئة فيها وإلا لما استمروا بداخلها أو لكانت لفظتهم. لم يميّز سعاد بين أهل البلد الأصليين وبين الذين وفدوا لاحقاً وقبلوا حياة البلاد وأقاموا فيها وارتبطوا باسمها ونهلوا منها وأعطوها. القومية ليست منفصلة عن الاجتماعية عند سعاد. فالمجتمع يجمع كل الأصول والأعراق في متحد متجانس ثقافته تتأتى من تنوعهم وتفاعل ميزاتهم الخاصة على نحو إيجابي بناء أخوي تعاضدي، دون أي تمييز بين عرق وآخر. أما ما رفضه سعاد الاجتماعي فهو انعزال أي عرق عن المتحد ككل، وعدم اختلاطه بالمزيج الكامل. ومن هنا جاء كلامه عن الانعزالية والرجعية السائدة بعد الانتداب الفرنسي والتي ميزت أئنية دون سواها.

حتى الأعراق التي دخلت إلى الأمة ذات الطابع الحضاري القديم العتيق القوي الغني المتنوع أعطت وأخذت لتنتج طابعاً جديداً متجانساً في كل مرة للمتحد الاجتماعي العام المتجدد. ومن بقي منها غربياً عن ثقافة الأمة فلفظته لقوة نبضها. حذر سعاد من العرقية ومن تقوقع الأعراق وانعزالها وانفصالها عن

بعضها (كما هو حال العيش المشترك) لأن ذلك يؤدي إلى التقسيم. وقد ورد نفس التحذير لاحقاً عند المفكر الاجتماعي علي شريعتي قبيل قيام الثورة في إيران. أما شريعتي فاعتمد مصطلح القومية الحديث بدلالته العرقية بدل مصطلح القومية عند سعادته.

وأود هنا الإشارة بالتفصيل إلى هدف شريعتي، لأن معتمدي "ولاية الفقيه" في لبنان تختلط عليهم الأمور أيضاً. إن إيران البلد تتكون من أعراق مختلفة عرب وكرد وفرس وتركمان وآذر. فالتركيز على القوميات أو على الشعور القومي وفقاً لشريعتي سيأخذ البلد إلى إقتتال بين القوميات وإلى الفتن بين أبناء الشعب الواحد الإيراني، ومن ثم إلى تقسيم إيران. لذلك في إيران كان لا بد من العبور فوق تلك القوميات وفقاً لمصطلح القومية الحديث، للحفاظ على تماسك البلد دون القطيعة مع الجذور. وفتش شريعتي على الجذور الأقرب تاريخياً في مسار إيران التاريخي والتي أحدثت تماسك الأمة الإيرانية، فوجد أنه إبان الحكم الإسلامي في إيران كانت الدولة أكثر تماسكاً، ولهذا السبب أدخل شريعتي عنصر الدين بهدف تماسك الدولة الإيرانية وليس العكس. وشريعتي كان أهم منظري الثورة، ولو أنكر الناكرون. وبما أن غالبية الشعب الإيراني المنتمين إلى أعراق مختلفة بنسب متفاوتة ينتمون بغالبيتهم إلى المذهب الشيعي، كان الدين أو المذهب عنصراً مهماً مساعداً في تماسك الشعب وتحقيق وحدة المتحد. ومن هنا جاءت المقولات بإعلاء الانتماء الديني فوق العرقي في إيران، وتم نبذ القومية على اختلاف أشكالها. إذاً الهدف كان وحدة المجتمع.

سعادته أيضاً بحث عن وحدة المجتمع السورافي، قبل شريعتي بنصف قرن من الزمن. فوجد أن الشعب السورافي لا يختلف عرقياً وحسب بل دينياً مذهبياً أيضاً وبشكل كبير. لا بل أن الاختلاف المذهبي أكبر من الاختلاف والتنوع العرقي فيها. فكيف يمكن لهذا الشعب أن يتحد ويفكر بإرادة واحدة جامعة بناءة لولوج مسار الاستقرار للمجتمع وحفظه من التحارب والتنافر والاققتال والانقسام، رغم تنوعه العرقي والديني والمذهبي. كان على سعادته أن يرتفع بفكرة ما فوق العرقية وفوق المذهبية ليحمي المجتمع والوطن والاستقرار. ومن هنا أطلق القومية الاجتماعية، المتعالية على العرقية والمذهبية والداعية إلى الولاء للمجتمع للمتحد بكل تنوعه وتفاعلاته. القومية الاجتماعية تنبذ العرق وتنبذ المذهبية وتواجه انعزال أي منها أو انغلاقه، وترفض عدم تدخل أي عرق بسواه أو أي مذهب بسواه، بل تدعوهم إلى التمازج لإنتاج ثقافة واحدة جديدة أكثر تنوعاً. فكل فكرة في هذا المجتمع هي ملك المتحد الاجتماعي كله، وكل فكرة من عرق أو مذهب هي له كله. وأن أي فكرة لم تكن لتتبلور بصورتها الواقعية، برأي سعادته، لو لم تكن بيئتها متنوعة تنوع الواقع السورافي الغني. وأن كل ما نشهده اليوم من تركيز على المشاعر المذهبية أو الإثنية العرقية ما هو إلا لخدمة تقسيم مجتمعنا وفك تماسكه عن الانتماء لبعضه رغم تنوعه. وأن كل تلك المشاعر التي تطعن بالقومية الاجتماعية أو وحدة المجتمع لا تصب إلا في خدمة أعداء مجتمعنا والطامعين بالسيطرة علينا وعلى خيراتنا وثقافتنا الواحدة المتنوعة بإحداث وخلق الفتن في ما بيننا.

الهدف هو وحدة مجتمعنا التي كانت وستبقى. وقومية سعادته الاجتماعية لم تدخل بعد حيز التجربة في نظامنا لنقول إنها فشلت. بل لم يسمح لها الطائفيون وأعداء المجتمع/ أنصار الأعراق والإثنيات والمذاهب أن تدخل نظامنا الاجتماعي. فهل نريد نحن أن نبني مجتمعاً متماسكاً قوياً يكون ولاؤنا لتمامه واستقراره أقوى من أي ولاء آخر؟ أم أننا نبحث عن الانقسام؟